المباحث الدلالية في الدرس البلاغي العربي

د. عالية قري
جامعة عباس لغرور خنشلة

الملخص:
تهدف هذه الدراسة إلى تتبع الجهود الدلالية لعلماء البلاغة بإبراز الأهمية البالغة التي يحفل بها المعنى في مختلف حقول الدراسة.وذلك بالتركيز على جهود اثنين من جهابذة التفكير البلاغي العربي: الجاحظ والجرجاني؛ اللذان تظهر إسهاماتهما في مختلف فروع الدرس اللغوي.

The Summary :
The study aims to investigate the lingual efforts made by linguists to express the extreme importance which characterises it in many lingual case study.
This latter was made tube the emphasis in the efforts of two brillant arabic linguists :Eljahidh and Eljorjani ; who has left greate contributions in the various branches of the linguistic course.

مقدمة:

كان للدرس البلاغي الدور البارز والسبق الواضح في الغوص في كثير من القضايا الدلالية، من خلال تقصي أهم الموضوعات فيها؛ كربط البيان بالدلالة، وقضية اللفظ والمعنى، وقضية الحقيقة والمجاز التي أسفرت عن التمييز بين الدلالات اللفظية المختلفة(المطابقة، والتضمين، والالتزام)

و"كان من كنوز التفكير البلاغي ما دار حول مبحث الدلالة من حيث الوقوف على فكرة الدلالة عموما، ثم تفصيل القول في ارتباط الدلالة بالمناسبة بين اللفظ والمعنى، وإنشاء علاقات دلالية بين الكلمات المتجانسة، ومن ثم البحث عن أنواع مختلفة من تلك الدلالات، مثل: الدلالة الصوتية، والنفسية، والإيحائية، وغيرها..."[1].

وقد تحدث معظم البلاغيين على دلالة الكلمة وعلاقتها بالوضع؛ فهذا "السكاكي" يشير إلى أن تغير المعنى مرهون بتغير الكلمة وأحوال وضعها بين الحقيقة والمجاز، يقول:" وإذا عرفت أن دلالة الكلمة على المعنى موقوفة على الوضع وأن الوضع تعيين كلمة بإزاء معنى بنفسها، وأن دلالة معنى على معنى غير ممتنعة، عرفت صحة أن تستعمل الكلمة مطلوبا بها نفسها، تارة معناها الذي موضوعة له، مطلوبا بها أخرى، معنى معناها بمعونة قرينة"[2] ،استنادا الى التسييقات التي تكون عليها.

وكان من الجهود البلاغية المميزة والرائدة في تقسيم الدلالات على الألفاظ، تقسيم "الرازي" لدلالة الألفاظ على المعنى إلى قسمين: وضعية وعقلية؛"فالوضعية كدلالة الألفاظ على المعاني التي هي موضوعة بإزائها،كدلالة الحجر والجدار والسماء والأرض على مسمياتها. وأما العقلية فإما على ما يكون داخلاً في مفهوم اللفظ، كدلالة لفظ البيت على السقف الذي هو جزء مفهوم البيت، والإشارة في كونها عقلية لامتناع وضع اللفظ بإزاء حقيقة مركبة، ولا يكون متناولاً لأجزائها، وإما على ما يكون خارجاً عنه كدلالة لفظ السقف على الحائط، فإنه لما امتنع انفكاك السقف على الحائط عامة."[3]

---

[1] – أسامة عبد العزيز جاب الله: دلالات الألفاظ في التفكير البلاغي دراسة تحليلية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كفر الشيخ، ص:02.

[2] – السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص:358.

[3]– الرازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق: بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، 1985، ص: 87

ومثلما كثرت القضايا الدلالية وتشعبت الآراء فيها، متشابهة أحيانا ومتضاربة أحيانا، ممتدة تارة ومتقطعة طورا؛ كثر البلاغيون الذين تركوا بصماتهم واضحة في مختلف المباحث الدلالية والبلاغية التي كانت تعنى أساسا بإعجاز القرآن وتقصي بيانه؛ على نحو ما نجد في:"النكت في إعجاز القرآن" للرماني، و"بيان إعجاز القرآن" للخطابي، و"إعجاز القرآن" للباقلاني، و"البيان والتبيين" للجاحظ، و"الدلائل والأسرار" للجرجاني...

وهذه الكثرة على أهميتها، هي الشفيع بأن تتبع الدراسة أبرز الذين كانت لهم الإضافة الرائدة في ربط الدلالة والمعنى بالبيان والإعجاز، ضمن قائمة طويلة وممتدة، يتزعمها "الجاحظ"، و"عبد القاهر الجرجاني"، وهما بحق قاعدة الهرم وزاويته في البحث الدلالي البلاغي العربي؛"إذ يمكن أن نجزم بأن البحث في المعاني باعتبارها جوهر عملية الكلام وإتقان نظمه، بدأت بإسهامات الجاحظ وتعريفه بأدوات البيان ومصطلحات(النظم)، وتأسست على يد عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه"دلائل الإعجاز" الذي لم يرد من وراء تأليفه إثبات إعجاز القرآن على سمت المتكلمين والمناطقة، وإنما رام به الكشف عن إعجاز القرآن من زاوية نظر أسلوبية."[1].

أولا:الجهود الدلالية عند الجاحظ

تناول الجاحظ في كتابيه المهمين:"البيان والتبيين" و"الحيوان"، قضايا كثيرة تتعلق بعلم الدلالة؛ كجمعه للصور اللفظية وغير اللفظية، ووقوفه على وظائف الكلام، وحديثه عن الدلالة السياقية وضرورة اختيار المكان والمقام الملائمين لموقع اللفظ و المعنى، ومشاركته الجدل القائم حول نشأة اللغة، وتطرقه للدراسة الصوتية التي تتعلق بحسن التأليف بين الحروف، وإشاراته إلى عيوب النطق والكلام وتنبيهه عليها...

وقد ربط الجاحظ في كتابه"البيان والتبيين" بين البيان والدلالة، وأقر أن وضوح الإشارة وبيانها وفائدتها مرهون بوضوح الدلالة وانكشافها، وذلك في قوله:" وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه"[2].

لينتقل في موضع تال من الكتاب إلى تعريف البيان وربطه بغاية الفهم و الإفهام، وهي الحقيقة التي يصبو إليها السامع والمتلقي على حد السواء، يقول:"... والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[3].

ولعل قضية "اللفظ و المعنى " هي من أهم القضايا التي اهتم بها "الجاحظ" وأفاض في الحديث عنها، فاشتهر بها واشتهرت به، نظرا للجدل الكبير الذي وقع بين الدارسين في فهم توجه "الجاحظ" فيها.

وتعد هذه القضية من أكثر القضايا التي تواتر ظهورها ومناقشتها عند العلماء باختلاف دراساتهم وتوجهاتهم الفكرية: (لغويون، بلاغيون، فلاسفة، مناطقة...). ولعل السبب وراء هذه الأهمية وذاك الاهتمام، يعود إلى كون "علاقة اللفظ بالمعنى تمتد إلى أعماق بعيدة تنتظم النشاطات البشرية في المجال اللغوي، من كلام وإبداع ونظم وغير ذلك...، فكان لابد أن يوجد مصطلح يمثل جهة اللغة ويعبر عنها وهو(اللفظ) ومصطلح يعبر عن جهة المضامين وهو (المعنى)"[4].

---

[1]– منقور عبد الجليل: علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص:152،151.

[2]– الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2003. ج:01، ص:75.

[3]– نفسه، ص:76.

[4]– بوذراع عبد الرحمن: مصطلح اللفظ والمعنى ومستويات التحليل اللغوي عند عبد القاهر، مجلة كلية الآداب، فاس، العدد 04، ص:335.

ولقد اختلفت آراء النقاد[1]في تجلية العلاقة بين القرينين: (لفظ / معنى) وتباينت. ولعل " المحفز لهذه المعركة، الإعجاز القرآني، أو فكرة الإعجاز في القرآن وارتباط الفكر النقدي والبلاغي بمضامينها، باعتباره عربيا إسلاميا، فكان النزاع محتدما في أين يكمن الإعجاز، في اللفظ وتأليفه، أو المعنى ودلالته، أو بهما معا، أم بالعلاقة المتولدة بين ذا وذا."[2]

ويبدو من ظاهر نصوص "الجاحظ"، في عموم هذه القضية، أنه يميل إلى تفضيل الألفاظ على المعاني؛ لأن الألفاظ - في رأيه- متناهية والمعاني غير متناهية، ولذلك فإن" حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ؛ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة"[3]. وهو في كل ذلك "يضع الأناقة والجودة والجمال في الألفاظ؛ فالمقياس عنده للقيمة الأدبية إنما يقوم في جزالة اللفظ وجودة السبك وحسن التركيب."[4].

وهذا هو المعيار الذي اعتمده في نقده للشعر، لأنه يعده عيار سلامة الكلام وجودته؛" فالمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك"[5].

وهو المذهب نفسه الذي تبناه "أبو هلال العسكري" في تخيره للفظ على المعنى وافتنانه به، في قوله:" الكلام أيدك الله بحسن سلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشبه أعجازه بهواديه، وموافقة مآخيره لمباديه." [6]

وتشابهت في ذلك عباراته بعبارات "الجاحظ"، مثلما نقرأه في قوله:"وليس الشأن في إيراد المعاني ...(لأن) المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي...(وإنما) هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب." [7]

ويرجع بعض الدارسين تعصب "الجاحظ" و"العسكري" للفظ وتحيزهما له على حساب المعنى، إلى مجموعة من الدوافع؛ نفسية وسياسية وقومية[8].

غير أن المتمعن في حقيقة فكر "الجاحظ،" وفي مذهبه الاعتزالي، يجد أنه لا يميل قطعا إلى هذا الإجحاف في حق المعنى؛"ولا ريب في أن الجاحظ فهم المعنى كما فهمه المعتزلة، وهو المعنى العقلي المنطقي، غير أنه لم يقتنع بأن هذا المعنى العقلي المنطقي يصنع شعرا، فكأنه قال لابد من أن يكون الشعر في العنصر الآخر، وهو اللفظ. واللفظ عند "الجاحظ"

---

[1]– يذهب معظم والباحثين إلى أن البلاغيين وقفوا إزاء هذه القضية أربعة مذاهب وفرق:(ينظر بالتفصيل: مُحَمَّد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي رؤية قرآنية معاصرة، دار المؤرخ العربي، لبنان،(د.ت/ د.ط)، ص:27.)

– فريق اللفظ، ويمثله الجاحظ، وأبو هلال العسكري.

– فريق اللفظ والمعنى، ويمثله ابن قتيبة، وقدامة ابن جعفر.

– فريق لم يفصل بين اللفظ والمعنى، ويمثله ابن رشيق وابن الأثير.

– فريق جرد اللفظ والمعنى، وقال بالعلاقة بينهما، ويمثله عبد القاهر الجرجاني.

[2]– المرجع نفسه، ص:27.

[3]– الجاحظ: البيان والتبيين، ج:01، ص:76.

[4]– مُحَمَّد حسين علي الصغير: نظرية النقد العربي رؤية قرآنية معاصرة ، ص:28.

[5]– الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الجيل، بيروت، د. ط، 1992،ج:3، ص:131، 132.

[6]– أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)، مطبعة محمود بك، الأستانة، ط01، 1319هـ، ص:39،40.

[7]– نفسه، ص:42.

[8]– ينظر: عادل هادي حمادي العبيدي: قضية اللفظ والمعنى، مجلة الأستاذ، العدد:30، 2013. ص:203.

لا يعني أصوات الحروف فقط، وإنما يعني المعنى الشعري الذي يقابل المعنى العقلي"[1].

إن "الجاحظ" لا يفضل اللفظ بوصفه أصواتا بل بوصفه معنى شعريا؛ وهذا يعني أنه لا يقلل من شأن المعنى، لأن "ما يقابل المعاني المطروحة في هذه النظرية ليست الألفاظ لأنها هي الأخرى معنية بالطرح والسقوط، وإنما يقابلها السبك والنسج والتصوير، يعني التركيب الذي هو تعريف اللغة في فهم اللسانيات اليوم"[2]

وهذا الفهم الصحيح لكلام "الجاحظ" ليس مجرد استنتاجات وتكهنات لظاهر قوله، إنما هو تصريح لـ"جاحظ" نفسه في أكثر من موضع في مؤلفاته؛ فهو عندما يعرف البلاغة يعطي لكلا الطرفين (اللفظ، والمعنى) المزية نفسها والأهمية ذاتها؛ بحيث" لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[3]. وعلى"قدر المعاني تأتي الألفاظ، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها، والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل ما تحتاج إليه المعاني المشتركة والجهات الملتبسة." [4]

وفي صحيفة "بشر بن المعتمر" ذكر للبلاغة ، وحديث عن مظان الكلام وفصاحته. يقول فيها: "خذ من نفسك ساعة فراغك، وفراغ بالك وإجابتها إياك وإن قليل تلك الساعة جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع ... وكن في إحدى ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك في نفسك على أن تفهم العامة الخاصة وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهاء ولا تجفو عن الإلقاء، فأنت البليغ التام."[5]

إن لهذه السمة في الألفاظ مكانة بارزة في دلالتها الصوتية، حيث يميل "الجاحظ " إلى تخصيص اللفظ بالصوت الذي هو الجوهر الذي تتميز به المقاطع في التأليف، وبدونه لا يتم الكلام بشكله السليم والمفهوم. وهذه الأصوات التي تصدر عنها ليست هدفاً لذاتها، وإنما هي وسيلة تتخذها للتعبير عن الدلالات أو الخواطر التي تجول بأذهاننا.[6]

وبناء على كل هذا يمكن الترجيح أن"تهوين "الجاحظ " من شأن المعاني المطروحة في الطريق هو في الوقت نفسه تهوين من شأن العبارة الحرفية، وإخراج لها من حيز الشعر، كذلك فإن إعلاءه من شأن الألفاظ المتخيرة هو بالتالي إعلاء وتقدير لقيمة المعاني والإيحاءات الخاصة التي تشعها بحسن صوغها وإبداع سبكها وتشكيلها."[7]

إن كلام "الجاحظ " حول السبك والنسج والتصوير، لخير دليل على إيمانه بأن قيمة اللفظ داخل السياق وليست خارجه؛ فالأسلوب أو التركيب هو الشفيع لجمالية الكلام وتفرده.

وهو يرى أن معنى الكلمة معنى مجرد خفي يرتسم أولا في الذهن، ليتجسد فيما بعد في استعمالات الناطقين كلاما يعبر

---

[1]– منى سعود آل تويم: قضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ وابن قتيبة والجرجاني وابن طباطبا، محاضرات في النقد العربي القديم، ص:02.

[2]– مُحَمَّد الصغير بناني: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص:141.

[3]– الجاحظ: البيان والتبيين،ج:01، ص:115.

[4]– الجاحظ: الحيوان،ج:06، ص:08.

[5]– نفسه،ج:01، ص:135.

[6]– ينظر: دلالات الألفاظ في التفكير البلاغي، ص:32،33.

[7]– حسن طبل: المعنى في الدلالة البلاغية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط01، 1980 ص:81.

عن فكرهم ومكنونات خواطرهم؛ وفي ذلك يقول:" المعاني القائمة في صدور العباد، المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة حوشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة...وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها"[1]

يتحدث "الجاحظ " هنا عن المعاني الإفرادية التي لا تحيا إلا في المواقف التواصلية المختلفة، وحياتها لا تعني خلقها أو إنتاجها من العدم بل يعني استثارتها وتحفيزها لأنها في الأصل موجودة، فهي قائمة في الصدور ومتصلة بالنفوس والخواطر؛" أي أنها آنذاك تكون موجودة ولكن وجودها هو وجود أولي صامت، أو هو "في معنى العدم" على حد تعبير "الجاحظ" ومقتضى ذلك أن ارتسام تلك المعاني أو العلم بها في النفس ليس وقفا على العلم بالكلمة الدالة عليها في اللغة"[2]

فمعنى الكلمة لا يتأتى إلا بظهورها في تركيب معين تتفاعل فيه مجموعة من الكلمات لتأدية وظائف تقتضيها طبيعة ذلك الارتباط.

وفي حديثه عن المطابقة بين الألفاظ والمعاني من خلال النظم، يميز "الجاحظ " بين أربعة أصناف للمطابقة:

- مطابقة بين اللفظ والمعنى.
- مطابقة بين الكلمة والكلمة.
- مطابقة بين الكلام والمستمع.
- مطابقة بين الكلام والمستمع ومقتضى الحال.

وهذه المطابقة هي التي تجعل الكلام واضحا ومفهوما، برده إلى مقامه الأصلي وسياقه "الحالي " الذي يشمل الظروف المحيطة بالحدث الكلامي، بما في ذلك المتكلم والمستمع، مع ضرورة مناسبة الكلام لمقتضيات المقام بينهما.

ويظهر هذا الاهتمام بملابسات الحدث الكلامي وعناصره وظروفه في قول الجاحظ : "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل صيغة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[3]

إن فكرة "لكل مقام مقال "، و"لكل كلمة مع صاحبتها مقال "لم تكن غريبة على "الجاحظ "الذي أشار إلى فكرة السياق عندما حدد الصفات الثلاث التي يكون بها الكلام بليغا:

- صفات تتعلق باللفظ: رشاقة اللفظ وعذوبته مع اليسر والسهولة.
- صفات تتعلق بالمعنى: اعتماد المعنى الظاهر القريب، وتجنب الغموص والإضمار.
- صفات تتعلق بالمقام وأحواله: ضرورة توخي المقصدية في توجيه الكلام.

وفي السياق نفسه تحدث "الجاحظ "عن وظائف الكلام وأشار إلى الغاية من العملية التواصلية التي أساسها الفهم والإفهام، في قوله:" لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه المعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما يحي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها"[4].

وهذا يعني أن " المعاني كامنة مستترة لا يمكن أن يعلمها (الآخر) إلا إذا تمظهرت في أنماط مقولية بها يطلع على ما في

---

[1]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج:01، ص:75.

[2]- حسن طبل: المعنى في البلاغة العربية، ص:11.

[3]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج:01، ص:138، 139.

[4]- نفسه، ص:75.

ضمير مخاطبه، ولا ينعقد الاتصال الإعلامي بينهما حتى يفصح أحدهما عما في نفسه من الحاجات للآخر، فكأن تلك المعاني كانت ميتة فأحييت بالذكر والإخبار والاستعمال"[1].

وقد تنبه "الجاحظ "في حديثه عن الدلالات وأقسامها إلى مسألة هامة تتعلق بطبيعة اللفظ (الدال)،التي يمكن أن تتجاوز العلامة اللغوية إلى دوال غير لفظية قسم -استنادا إليها -أصناف الدلالات على المعاني إلى خمسة أقسام، جمعها قوله:" وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد:

أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات.

ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة عن صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوا بهرجا وساقطا مطرحا"[2].

كما تنبه "الجاحظ "إلى الدلالة النفسية، وأثر خفة الألفاظ في شيوعها على ألسنة الناس، وشدة تأثيرها فيهم وإن كان غيرها أحق منها، يقول:"إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في حسن استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الحسنة(...)كنت قد أوتيت فصل الخطاب"[3]، واستشهد لذلك بتفضيلهم لفظ (الجوع)على (السغب)و (المطر)على (الغيث)،إدراكا منهم أن خفة اللفظ وجمال جرسه يسرع به إلى الأذن لتستلذ به قبل أن تفقه (القلوب)معناه. وهذه هي بلاغة الكلام ودلالته النفسية، الذي لا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه.

لقد تمكن "الجاحظ "في كتابيه المهمين من الخوض في مختلف المباحث الدلالية وربطها بمختلف السياقات المعرفية. واستطاع بموسوعيته في التعامل مع المسائل اللغوية، أن يصف ويفسر أهم القضايا الدلالية استثارة للباحثين، فكانت إشاراته الصريحة والضمنية خير معين لعلماء الدلالة من بعده.

ثانيا: الجهود الدلالية عند عبد القاهر الجرجاني

يعد "عبد القاهر الجرجاني "من رواد التفكير الدلالي في البحث البلاغي العربي، وتعد جهوده في كتابيه: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة"قمة الجهود البلاغية العربية في ميدان البحث الدلالي؛ فدراسته للنظم وما يتصل به تقف بشموخ أمام النظريات اللغوية في الغرب، بل تفوق معظمها في مجال فهم التركيب اللغوي، مع الفارق الزمني الواسع الذي يعد ميزة يختلف بها عبد القاهر عن غيره، ويعود إليه فضل السبق"[4]

وينفرد كتابه دلائل الإعجاز"بدراسة الموضوعات النحوية من وجهة معنوية (أي الأغراض في الكلام حسب السياقات المختلفة)،ويؤكد على جانب من بناء الكلام وصلة معانيه بعضها ببعض، وقد أنفق بهذا جهدا في تبسيط قواعد النحو... لذا نلاحظ أنه قد أحدث أفكارا في كتابه هذا نتيجة التفاعل بين الأفكار النحوية والبلاغية التي عمل على دفعها إلى مراحل متقدمة مؤكدا على وظيفة الكلم في إطارها الذي صيغت فيه، وهدف بجهده إلى دراسة التركيب اللغوي في

---

[1]- مهين حاجي زادة: مظاهر من الأبحاث الدلالية في التراث العربي والإسلامي، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، العدد:18، 2011، ص:111.

[2]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج:01، ص76.

[3]- نفسه، ص:114.

[4]- مهين حاجي زادة: مظاهر من الأبحاث الدلالية في التراث العربي والإسلامي، ص:115.

الأساليب المتنوعة للتعبير عن المعنى داخل السياق المفيد"[1].

وقد شكلت فكرة السياق بؤرة تحول في الفكر اللغوي، إذ ثار "الجرجاني "على فكرة الفصاحة في الكلمة المفردة، وأكد على العلاقات والروابط والقرائن التي تكون سبيلا لتفضيل استعمال على آخر.

واستنادا إلى هذا وضع "الجرجاني "نظريته في النظم التي تقوم أساسا على التعليق وتوخي معاني النحو؛ فهو يرى أن النص اللغوي يتأسس من خلال وحداته البنائية المتراكبة التي تحكمها علاقات نحوية وروابط سياقية. يقول:"واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها"[2].

وهذا التعانق الضروري والحتمي بين النظم وقوانين النحو وأصوله ومناهجه ورسومه يعني أن الباحث اللغوي يجب عليه "الانطلاق من النحو في تفسير النص، إذ إن النص لا يمكن أن يتنصص إلا بفتل جديلة من البنية النحوية والمفردات، وهذه الجديلة هي التي تخلق سياقا لغويا خاصا بالنص نفسه، وعند محاولة فهم النص وتحليله لابد من فهم بنائه النحوي على مستوى الجملة أولا، وعلى مستوى النص كله ثانيا"[3].

ففائدة النظر النحوي في النص هي للوقوف على طبيعة التراكيب، وطريقة تأليفها؛ إذ "لا يمكن أن يكون هناك إبداع إلا عندما يوجد تفكير عميق في الطبيعة التركيبية للغة، إلا حينما يوجد خلق جديد لهذه التركيبات"[4].

والنحو هو الوسيلة الطيعة والأداة المثالية التي تمكن من تفسير التعانق القائم بين الأصوات والكلمات والدلالات التي تبث من خلالها، ذلك أن "التفاعل بين الكلمات ووظائفها النحوية في الجملة هو تفاعل دلالي نحوي معا، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، لأن المفردات من غير نظام يحكمها ويربط بينها لا يتأتى لها اجتماع إلا في التنظيم المعجمي فحسب... والنظام النحوي من غير مفردات تقوم به، وتحقق وجوده العقلي وعاء فارغ، ولا يقوم إلا في عقول أبناء اللغة، ولا يجد سبيلا لتحققه إلا في الجمل التي ينطق بها أبناء اللغة أو يكتبونها."[5]

وفي ربطه النحو بالنظم يرى "الجرجاني "أن مرد الفصاحة ليس إلى الكلمة المفردة، وإنما إلى ما تقيمه من علاقات مع غيرها من الكلمات في سياق يحدد قيمتها وأهميتها؛ فـ" الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لئن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد..."[6]؛ فقيمة الكلمة ليست في ذاتها معزولة، إنما فيما تقيمه من علاقات تبررها سياقات تواصلية معينة.

والدليل على ذلك- كما يقول- أن زعمنا هذا الرأي يؤدي "إلى ما لا يشك عاقل في استحالته، وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لتعرف بها حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا رجل وفرس ودار لما كان لنا علم بمعانيها... كيف والمواضعة لا تكون ولا تتصور إلا على معلوم"[7]

---

[1]- صالح بلعيد: التراكيب النحوية ودلالاتها في السياقات الكلامية والأحوال التي ترتبط بها عند الجرجاني، (مخطوط)، جامعة الجزائر، معهد اللغة والأدب(ماجيستير)، ص:25.

[2]- الجرجاني: دلائل الإعجاز، تعليق: محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط03، 1992، ص:181.

[3]- محمّد حماسة عبد اللطيف: اللغة وبناء الشعر، دار غريب، القاهرة، د. ط، 2000، ص:71.

[4]- محمّد عبد المطلب: جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط01، 1995، ص:142.

[5]- محمّد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة(مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي)، القاهرة، ط01، 1983، ص166.

[6]- الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:495

[7]- نفسه، ص:496.

ينظر "الجرجاني "إلى المعاني الإفرادية على أنها"مدركات وصور أولية يسبق تصورها وتحصيلها في النفس المواضعة على الكلم والرموز اللغوية الدالة عليها، بل إنه لولا ذلك السبق لما كانت للمواضعة- التي لا تكون إلا للمعلوم المتقرر سلفا في الذهن- معنى، فعلاقة الكلمة المفردة بمعناها- في نظر عبد القاهر- ليست علاقة السبب بالمسبب، بل هي علاقة إشارية محضة، تقتضي سبق المشار إليه في الوجود عن الإشارة، لا ترتبه عليه، أو توحده معها"[1]

وهذه الرؤية الحاذقة جعلته يميز بين دلالة الوضع ودلالة السياق؛ فالأولى – بقدر صمتها وسكونيتها- فهي متعددة الدلالات لأنها تنطوي على مجموعة من الأفكار والصور التي تتجلى كل منها عن طريق السياق المحدد الذي تشكله سلسلة العلاقات مع غيرها من الدلالات؛ لذلك "ينبغي أن لا ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارا، وأمرا، ونهيا، واستخبارا، وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظ على لفظ. هل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له مع صاحبتها على ما هي موسومة به، حتى يقال: إن "رجلا" أدل على معناه من "الفرس" على ما سمى به"[2].

لايوجد معيار للتفاضل بين الكلمات، وإنما هناك معيار للتفاضل بين السياقات ؛ فالكلمة الواحدة يمكن أن تكون حسنة في موضع، وغير حسنة في موضع آخر،"ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"[3].

هي إذن قيمة نسبية تلك التي تكون للكلمة، وهذه النسبية توجهها طبيعة الكلمات السابقة والتالية لموضع هذه الكلمة (المجاورة السياقية) التي تستدعي مجاورة معنوية يحددها مبدأ الملاءمة والاقتضاء. يقول الجرجاني:"فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[4].

إن إدراك "الجرجاني" لقيمة النظم جعله يعارض الذين اعتبروا فصاحة الكلمة في إفرادها، ويرفض أن يكون للألفاظ المفردة، التي هي أوضاع اللغة من حيث أصواتها ومعانيها، دخل في إعجاز القرآن الكريم الذي"بهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما"[5].

لقد ألح "الجرجاني" على فكرة السياق، وأشار إلى أهمية مراعاة عناصر الحدث الكلامي المختلفة. ويتميز السياق الكلامي عنده بمستويين:[6]

أ- مستوى البنية النحوية الساكنة التي تتحدد بتحقق الإسناد.

ب- مستوى البنية الإبلاغية المتغيرة حسب المقام، وهي تتحدد بتحقق الفائدة.

وفي تأكيده عى ضرورة توافق النظم مع الحال(المقام/ الموقف)، يقول:"... وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك

---

[1]– حسن طبل: المعنى في البلاغة العربية، ص:11.

[2]– عبد القاهر الجرجاني:دلائل الإعجاز، ص:47.

[3]– نفسه، ص:49.

[4]– نفسه، ص:46..

[5]– نفسه، ص:39.

[6]– ينظر: صالح بلعيد: التراكيب النحوية ودلالاتها في السياقات الكلامية والأحوال التي ترتبط بها عند الجرجاني 1987، ص:96.

تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق"[1].

يرى "الجرجاني "أن ترتيب الألفاظ في النطق تابع لترتيب المعاني في النفس، وذلك لأن المعاني قد تتغير دون تغير الألفاظ (المعاني متغيرة والألفاظ ثابتة)؛ فـــ" لو كانت المعاني تكون تبعا للألفاظ في ترتيبها لكان محالا أن تتغير المعاني والألفاظ لحالها لم تزل عن تركيبها، فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغير من غير أن تتغير الألفاظ وتزول عن أماكنها، علمنا أن الألفاظ هي التابعة والمعاني هي المتبوعة"[2].

لقد وقف "الجرجاني "من اللفظ والمعنى موقف الحكيم المتريث، واجتهد ألا يفاضل بينهما، لأن العبرة هي في حسن الصياغة و توخي معاني النحو باعتبار أن اللفظ جسد والمعنى روح له، ولا قيمة لأحدهما دون الآخر.

ورغم هذا التريث في الحكم إلا أنه يبدو جليا إيثار "الجرجاني" للمعنى على حساب اللفظ، وأكبر دليل على ذلك أن نظريته الرائدة(النظم) قائمة أساسا على تبجيل المعاني وليس الألفاظ.

كما نظر إلى النحو وقواعده الصارمة نظرة جمالية قائمة على الحس النقدي والتذوق الفني الرافض لجمودية اللغة التي تكبلها قواعد جافة تحد من مرونة المعنى المرتبط أساسا بسياقات ومواقف متغيرة، وتنتصر للفظ بشكليته(العلامة الإعرابية) ومباشرته.

ويلخص "الجرجاني "هذا التعالق بين النظم ومعاني النحو، في قوله:"وإذا قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها، ثم اعلم أن ليس المزية بواجبة في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض"[3].

يمكن أن نستخلص من هذا النص، نظرة "الجرجاني "للدلالة التي تقوم على ثلاثة عناصر أساسية:

اللفظ/ الشكل الخارجي: الذي يحدده الاستعمال(المجاورة اللفظية).

المعنى/ : الذي تحدده أغراض الوضع، وغاياته.

النظم: الذي يحكم الاثنين.

لقد ربط "الجرجاني" المعنى باللفظ ونظر إليهما نظرة "دي سوسير" لوجهي الورقة النقدية التي تقتضي تلازمهما لتحقق الدلالة، بإشراك عنصر ثالث لتجليتها هو الصورة أو المحتوى الفكري للدال، الذي وضحه في قوله:" فيعلموا أنهم لم يوجبوا ما أوجبوه من الفضيلة وهم يعنون نطق اللسان أو أجراس الحروف، ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا اللفظ وهم يريدون الصورة التي تحدث في المعنى والخاصة التي حدثت فيه" [4].

ومن القضايا الدلالية المهمة التي أشار إليها "الجرجاني" قضية عدم وجود علاقة طبيعة مبررة بين اللفظ(الدال) والمعنى(المدلول) في إشارة ذكية منه إلى مبدإ الاعتباطية الذي صار أساس كل ممارسة لسانية في العصر الحديث. وذلك في نصه المشهور" فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد"[5].

---

[1]- الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:49.

[2]- نفسه، ص:338

[3]- نفسه، ص:87.

[4]- نفسه، ص:425.

[5]- نفسه، ص:49.

وهي عبارات يدعمها قوله في كتاب الأسرار ما نصه:"كل حكم يجب في العقل وجوبا لا يجوز خلافه، فإضافته إلى دلالة اللغة وجعله مشروطا فيها محال؛ لأن اللغة تجري مجرى العلامات والسمات، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه وخلافه." [1]

وهذا يعني أنه لا يوجد سند لعلاقة الكلمة بمعناها سوى فيما يتعلق بالوضع اللغوي، وذلك لغياب المبرر العقلي، "ومقتضى ذلك أن الارتباط بينهما وليد الصدفة المحضة أو هو ارتباط ما، بحيث لو فرضنا أن المعنى قد وسم بغير ما وسم به لما ترتب على ذلك إحالة عقلية"[2]

والدلالة على المعنى عند الجرجاني دلالتان: مباشرة، وغير مباشرة.

أ- الدلالة المباشرة(المعنى القريب/ الحقيقي): وهي الدلالة التي يحددها الاستعمال الظاهري السطحي للكلمة.

ب- الدلالة غير المباشرة (البعيدة/ المجازية/ معنى المعنى): العدول عن المألوف بكسر القواعد المعروفة، للوصول إلى معنى خفي تحدده علاقات كامنة.

يقول الجرجاني في هذه الثنائية (المعنى ومعنى المعنى):"الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"[3].

والدلالة في النهاية هي انتقال من المعنى السطحي الظاهر المباشر(المعاني الأوائل) إلى المعنى الخفي المجازي البعيد(المعاني الثواني)، مع ضرورة عدم إغفال أحدهما؛ لأن أساس الفهم يكون بالنظر إلى العلاقة الإسنادية التي سيؤول لاتناسبها الظاهر إلى تناسب خفي يبرره المعنى المقصود، لأن إدراك المتلقي للدلالة الثانية مرهون بملكة الاستدلال التي يجب أن تكون مرجعيتها مشتركة بين المتكلم والمستمع.

وهذا يعني أن المتلقي (المستمع)"لا يستطيع القفز من اللفظ الاستعاري إلى المعنى الثاني مارا بالمعنى الأول (...)، وذلك الاختيار أو الاختراق يتم من خلال المستوى الأول السطحي للمعنى ووصولا به إلى المستوى التحتي العميق الذي لا يوجد إلا من خلال اكتناه الفاعلية النفسية للصورة، خاصة وأن فاعلية الصورة تكون في ذلك التقابل المعنوي القائم في الإسناد"[4].

ومثلما ألح "الجاحظ" على ضرورة مراعاة الكلام لمقتضيات الحال من خلال التوافق المفهومي بين المتكلم والمستمع، أولى "الجرجاني" أهمية كبيرة لأطراف العملية التواصلية، التي يرى أن شرط تحققها مرهون بسلامة الرسالة وخلوها من الأخطاء تركيبيا ودلاليا؛ يقول:"إذا كان النظم سويا والتأليف مستقيما، كان وصول المعنى إلى قلبك تلو وصول اللفظ إلى سمعك، وإذا كان على خلاف ما ينبغي وصل اللفظ إلى السمع وبقيت في المعنى تطلب وتتعب فيه وإذا أفرط الأمر في ذلك صار إلى التعقيد الذي قالوا إنه يستهلك المعنى"[5]

إن السر لا يكمن في الصعوبة والتعقيد والغرابة بل في مدى الوضوح الذي يستغل الإمكانات المتاحة لتأدية دلالات قد تقفز بالمعنى الى أبعاد يرتضيها المبدع، من خلال شبكة العلاقات الخفية التي لابد أن تكون لدى القارئ مرجعيات ما

---

[1]- الجرجاني: أسرار البلاغة، ص:07.

[2]- حسن طبل: المعنى في البلاغة العربية، ص: 22.

[3]- الجرجاني: الدلائل، ص:262.

[4]- يسرية يحي المصري: بنية القصيدة في شعر أبي تمام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1997، ص:231، 232.

[5]- الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:257

عنها.

ومن الإضافات الريادية للجرجاني فيما يتعلق بهذه النظرية، ربطه بين دلالة الألفاظ وبيئة المتكلم ، ويتجلى ذلك في قوله:"وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك المعنى فيه، وكونه من أسبابه ودواعيه، فلا يكاد يعمد نمطا واحدا وهو أن تكون اللفظة فيما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم"[1]

كما ربط بين دلالة الألفاظ والبيئة النفسية للمتكلم في قوله : " فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس ، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق "[2]، وهذا يعني أن الألفاظ تابعة للمعنى، لأنها تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس.

وقد أشار "عبد القاهر الجرجاني" في حديثه عن النظم إلى أهمية هذه الدلالة (النفسية) وأثرها الكبير في سلوك المتكلم، وذلك في قوله: "إن هذا النظم الذي يتواصفه البلغاء ، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله، صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة... (فـ) لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم ، أو غير الحسن فيه ، لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجهله الآخر." [3]

لقد كانت نصوص الجرجاني إضافات ريادية في حقل الدراسات الدلالية، حيث كانت نظريته في النظم معينا لا ينضب، تنطلق منه مختلف المباحث اللغوية التي تنظر إلى اللغة بتحققاتها الفعلية في سياقات نصية، يترابط فيها المبنى بالمعنى، وتتشابك معها مصلحة المتكلم ونفسيته التي تنتصر لاستعمالات دون أخرى في مقامات متغايرة، تؤثر فيها البيئة والمجتمع بمختلف إرهاصاتهما.

خاتمة:

لاشك أن الأهمية البالغة التي يكتسيها المعنى هي التي جعلت العلماء باختلاف توجهاتهم في الدرس، ينهالون عليه بالبحث ويربطون بينه وبين مختلف حقولهم المعرفية. وهو ما دفع بعلماء البلاغة إلى تتبع تمظهرات المعنى والربط بينها وبين المباني التي تتشكل في إطارها، سواء لتأدية دلالات مباشرة (حقيقة)، أم دلالات خفية (مجاز)، بعدم إغفال السياقات العامة التي تتواتر فيها تعالقات المباني التابع لتعالقات المعاني؛ في مقام تواصلي معين تراعى فيه ملابسات الحدث الكلامي بجميع عناصره: متكلم، مستمع، رسالة.

[1]- الجرجاني: أسرار البلاغة ص05

[2]- الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:52.

[3]- نفسه، ص:51